العقل والمعرفة عند ابن باجة

الباحثة/ وردة حلمي فولي

الملخص

يمكننا القول بأن البحث في العقل يفضي بنا حتماً إلى البحث في المعرفة لا نقصد نظرية المعرفة بتفاصيلها؛ بل إدراك الحقائق المطلقة ، لأن العقل عند ابن باجة هو العنصر الأول في المراتب المعرفية، والمعرفة الصحيحة عنده لا تكون الا بالعقل ، والمعرفة المطلقة لا سبيل الهيا ألا بالعقل، وبالعقل إنما تنال السعادة ، وتتحقق الأخلاق. فالإنسان قادر على أن يعرف بعقله كل شيء من أدنى دركات الوجود إلى أعلى درجاته، حيث يبلغ المرتبة العليا بتنمية العقل تنمية حرة خالصة من القيود والشوائب، وبالفعل الحر الاختياري الذي يصدر بعد الفكر والروية، أي: الفعل الذي يشعر فاعله بغاية يقصدها منه. وهذا يشير إلى تقسيم ابن باجة للأفعال حيث تنقسم هذه الأفعال عنده إلى قسمين : بهيمي وإنساني القسم البهيمي هو ما يبني على الحاجة (الطعام والشراب) ، وعلى الأفعال (الغضب والخوف). أما القسم الإنساني: فيتضمن الأفعال التي تقوم على الإرادة والروية والتفكير، مثل: أن يكسر الإنسان عوداً بارزاً في حديقة حتى لا يخدش أحد من المارة، فمن أراد أن يبلغ المرتبة العليا في المعرفة والسعادة، فعليه أن يقوم بالأفعال وفقاً لما يؤمر به العقل وتوحي به الحكمة بعيداً عن كل القيود، لأن الفعل العقلي حسب رأي ابن باجة هو إلهي فاضل، حيث يأخذ من كل فعل أفضله، ويشارك كل خليقة في أفضل حالة خاصة بها، وينفرد بأفضل الأفعال([1])

(١) عبد الرحمن مرحبا: خطاب الفلسفة العربية الإسلامية، مؤسسة عز الدين للطباعة والنش، – بيروت، د.ط، ١٩٩٣ م، ص: ٤٣ .

Summary:

We can say that searching the mind inevitably leads us to searching knowledge, not what we meanThe theory of knowledge in its details; Rather, the realization of absolute truths, because according to Ibn Baja, reason is The first element in the levels of knowledge, and correct knowledge according to him can only be achieved through reason.

There is no divine path to absolute knowledge except through reason, and through reason only happiness can be attained and achieved Moral. Man is able to know with his mind everything from the lowest levels of existence to... Its highest level, as it reaches the highest level by developing the mind in a free manner free from restrictions And the impurities, and the free and voluntary action that occurs after thought and deliberation, that is: the action that The doer feels the purpose he intends for it. This refers to Ibn Baja's division of actions, as these actions are divided into two parts according to him: animal and humanThe bestial oath is what is based on need (food and drink), and on actions (anger And fear). As for the human section: it includes actions that are based on will, deliberation, and thinking, such as: a person breaking a stick stick in a garden so that no one passing by is scratched. Whoever wants to reach the highest level of knowledge and happiness must perform actions according to what the mind commands and suggests. Wisdom is free from all restrictions, because rational action, according to Ibn Bajjah's opinion, is divine and virtuous, as it takes from every action its best, shares its own best state with every creation, and is unique in its best actions .

أولا: العقل والمعرفة :

وهكذا يؤكد ابن باجة أن المعرفة الكاملة هي الطريق الموصل إلى السعادة حيث يرى أن لها مراتب مختلفة لابد للمرء من اجتيازها واحدة تلو الأخرى إذا أراد أن يصل إلى السعادة ، وهذه المراتب هي: الصورة الروحانية ، والمعقول ، والعقل الأخر أي : العقل الفعال.

فالصورة الروحانية تعني عند ابن باجة الحس نفسه حيث يقول: " فإن كل حيوان فهو حساس، والحس صورة روحانية يدرك بها الحيوان ذلك الجسم، فلذلك لا يخلو الحيوان من معرفة" (١) أما المعقول فهو ليس صورة لهيولي أصلاً، ولا هو صورة روحانية لجسم، ووجود ذلك الجسم بها كالخيالات، بل هي صورة هيولاها الصور الروحانية الخيالية المتوسطة(٢) أما العقل الفعال الذي سبق وتحدثنا عنه، فهو الذي لا يستطيع الاتصال به إلا من أتأبه الله، وأنعم عليه فهو ثواب الله ونعمته على من يرضاه من عباده. مما سبق يمكن القول بأن نظرية ابن باجة في المعرفة تعتمد على التمييز بين الوجود المحسوس والوجود المعقول، والصعود من الأول إلى الثاني، ووجود معقول وهو إدراك المعنى مجرداً عن المادة، وذلك لأن الحس يدرك الأجسام المركبة من المادة والصورة، أما العقل فيدرك ماهيات الأجسام وفيه تصير المعقولات عقلاً إذا جردها العقل من الصور والمادة، وبالتالي فلا يوجد عنده شيء في العقل ما لم يمر بالحس أولاً. والجدير بالذكر أن المعرفة عند ابن باجة ليست تذكر كما يقول أفلاطون ؛ وإنما هي تعتمد على الحواس كما يقول أرسطو ؛ لأنه لا يمكن لأحد أن يتعلم والحواس عنده معدومة، ولهذا يؤكد ابن باجة على الصلة بين الحس والخيال والعقل، وأن الحس والخيال ليسا مضافين للعقل، بل العقل يكمل لهما، أي : أن العقل يبدأ في مرحلة الصعود بإدراك الصور المادية للجسمانيات ثم يدرك الصورة المتوسطة بين الحس والعقل ثم العقل الإنساني ذاته، إلى أن يصير عقلاً فعالاً، وهناك يدرك عقول الأفلاك المفارقة ثم الواحد(٣) ولهذا كان الاتصال بالعقل الفعال غاية الإنسان ومهمته الجوهرية عند ابن باجة فوجود الإنسان إذ اً من أجل غاية عقلية وعليه لكي يحقق هذه الغاية فلابد عليه أن يُنمي

قواه الإنسانية الأخرى مع استعداداته الأخلاقية منفرداً أو في جماعة حتى يستطيع عن طريق النفس العاقلة وسيطرتها على النفس الحيوانية أن ينجز مهمته العقلية، وأن يحقق

(١) ابن باجة : رسالة الاتصال ، ص: - ١٥٩ .

(٢) ابن باجة: المصدر نفسه، ص: - ١٦٠

(٣) للمزيد يراجع كلاً من) عبد الرحمن مرحبا، خطاب الفلسفة العربية، - ٤٣٤ _ ٤٣٧ ، وحنا الفاخوري خليل الجر، تاريخ الفلسفة العربية، ج - ٢ ، دار الجيل ، بيروت، ط ٣ ، ١٩٩٢ م، ص: ٣٥٠ - ٣٥٢

غايته القصوى، وهي الاتصال بالعقل الفعال. وبالنظر للدور الفعال والمؤثر لقضية الاتصال في نظرية المعرفة عند ابن باجة رأينا أن نتحدث بإيجاز عن مسألة اتصال الإنسان بالعقل أو اتصال العقل بالإنسان وذلك من خلال الطريق الصاعد والطريق الهابط

قضية الاتصال :

تعتبر مسألة الاتصال من المسائل المهمة في فلسفة ابن باجة حيث عرضها في بعض مؤلفاته ؛ بل وخصص لها رسالة خاصة بها وسماها : " رسالة اتصال العقل بالإنسان" حيث يصف اتحاد العقل الإنساني بالعقل الفعال بالبهجة العظمى والغاية للحياة الإنسانية، وتستيقظ الحياة في العقل الكامن في الإنسان بواسطة أثر العقل الفعال على العقل. ولكن الحياة الأبدية تتكون من اتصال كامل بين العقل والعقل الفعال([1]) ولكن كيف يتم الاتصال بين الكثرة والوحدة أو العكس؟

للإجابة على هذا السؤال نجد الاتصال عند ابن باجة إما أن يكون عن طريق اتصال الأنسان بالعقل عن طريق تدرجه عبر الصور الروحانية فيتصل بالمعقول ومن المعقول إلى العقل، وهذا التدرج أو الارتقاء يشبه الصعود ، ولذلك يسميه ابن باجة بالطريق الصاعد. وإما أن يكون عن طريق آخر وهو أن هذا العقل الذي هو منة من الله يهبط على القلة من الناس وكأن لا خيار لهم في ذلك على الاطلاق ويسمى هذا الطريق بالطرق الهابط وهو الطريق الثاني للاتصال.

الطريق الصاعد : يتمثل هذا الطريق عند ابن باجة في الارتقاء من الحس إلى المعقول إلى العقل ذاته، وهذا الطريق يساير الطريق الذي سلكه ابن باجة في نظرية المعرفة، وهو الطريق الذي يرتقي فيه الإنسان من الجزئي إلى الكلي حيث يبدأ من المحسوس فيقوم الحس في هذه المرحلة بانتزاع صور المحسوسات، وتظل هذه الصورة على علاقة بمادتها إلى أن تدخل في نطاق الخيال فيجردها بدوره تجريداً تاماً عن المادة وتصبح المعاني كلية بعد إن كانت جزئية([2]) بهذا الطريق يعيش الأنسان الكامل وفق دواعي العقل وباستناده إلى العقل يصل إلى الكمال وهذا الكمال لا يكون الا بالاتصال بالعقل الفعال، والنظر العقلي المجرد، ولهذا يؤمن ابن باجة بالعقل باعتباره العنصر الأهم في المعرفة المطلقة والتي به تنال السعادة. وبالتالي يكون السبيل الصحيح للمعرفة هو الصور الروحانية ثم إلى المعقول ثم إلى العقل الفعال . ولذلك نجد ابن باجة يقسم العارفين إلى ثلاثة مراتب:

(١) يراجع: دي لاسي أوليري: الفكر العربي ومكانته في التاريخ، نقله إلى العربية وعلق عليه، – اسماعيل البيطار، دار الكتاب اللبناني، د.ط، ١٩٨٢ م، ص: ٢٠

(٢) زينب عفيفي: ابن باجة وآراؤه الفلسفية، ص: – ٢٦٧

١ – المرتبة الجمهورية: يسمي ابن باجة هذه المرتبة بالمرتبة الطبيعية، وأصحاب هذه المرتبة لا يدركون المعقول الا مرتبطاً بالصور الهيولانية، ولا يعلمونه إلا بها وعنها ومنها ولها، ويدخل في هذه المرتبة جميع الصنائع العلمية([1])

٢- المرتبة النظرية: وهي في ذروة المرتبة الطبيعية، ولكنها تصل إلى الذروة منها:" فالجمهور ينظرون إلى الموضوعات اولاً، وإلى المعقول ثانياً، ولأجل الموضوعات، والنظار ينظرون إلى المعقول أولاً، وإلى الموضوعات ثانياً، ولأجل المعقول تشبيه اً فلذلك ينظرون إلى المعقول أولا " ([2])

٣- مرتبة السعداء (الواصلون) : وهم الذين يرون الشيء بنفسه، وهي أعلى المراتب الثلاث وأسماها، وهي الغاية القصوى، وهذا النوع من النظر شبيه برؤية الضوء، ففي هذه الرؤية تكون الصورة المبصرة والضوء الذي نبصر به شيئاً واحداً. فيشبه ابن باجة ذلك بالضوء الذي هو أصل كل رؤية فكذلك الواصلون إلى هذه المرتبة تحدث لهم المعرفة الكاملة؛ لأنهم يتصلون بأصل كل معرفة. والواصلون إلى هذه المرتبة هم العلماء الذين تتبين لهم أشياء كثيرة لا يراها الجهلاء الذين لا يصلون إلى المرتبة، فحجب عنهم العقل الفعال الذي هو أصل المعقولات ، ويشبه ابن باجة ذلك كالضوء الذي ترى به العين وإذا حجب عنها الضوء لم تعد ترى شيئاَ([3])

ويمكن القول حسب رأي ابن باجة أن العلم هو الطريق الذي يسلكه الأنسان إلى الاتصال بالعقل الفعال ويتم له ذلك عن طريق التأمل، أما الشوق والارتقاء فهو الذي يحرك الأنسان صاعداً إلى أعلى فيحدث له الاتصال عن طريق هذا التعلم.

ووفقاً لما تقدم نخلص إلى أن العقل عند ابن باجة هو العنصر الأول في المعرفة الصحيحة، و أيضًا هو طريق اكتساب السعادة القصوى التي لا تنال إلا بالعقل فبالعقل يستطيع أن يعرف الأنسان أدنى الموجودات وهي المادة، و أيضاً عن طريقه يعرف أعلى الموجودات وأسماها مرتبة وهي الإله.

الطريق الهابط : وهو طريق الهبوط من العقل الفعال إلى الإنسان وهو كما أسلفنا ثواب الله ونعمته على من يرضاه من عباده. فهو إذاً هبة من الله وإشراق منه على بعض عباده المختارين ولا فضل في هذا الطريق للإنسان، وتحدث ابن باجة عن المكانة المرموقة التي يبلغها من جُعل له هذا العقل فيقول: " ومن جعل له هذا العقل

(١) ابن باجة : رسالة اتصال العقل بالإنسان، ص: – ١٦٧

(٢) ابن باجة: المصدر نفسه، ونفس الصفحة.

(٣) كامل محمد محمد عويصة، ابن باجة الأندلسي الفيلسوف الخلاق، دار الكتب العلمية ، – بيروت، ط ١ ، ١٩٩٣ م، ص: ٢٢٥ .

فإذا فارق البدن بقى نوراً من الأنوار يسبح الله وبقدسه مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا" (١) ، حيث يكون ذلك عن طريق الفطر الفائقة المعدة لقبول الكمال الإنساني، وهذه الفطر هي المُعدة لقبول العقل الإنساني ثم لقبول عقل إلهي وعقل مستفاد من الله عز وجل (٢)

وهذه البصائر القلبية كما يرى ابن باجة تتفاضل تفاضلاً عظيماً ، وأعظم هذه البصائر الموهوبة من الله هي بصائر الأنبياء حيث يعلمون الله عز وجل ومخلوقاته حق علمه ويرون ببصائرهم الفائقة في نفوسهم ذلك العلم العظيم دون تعلم ولا اكتساب. فالطريق الهابط إذاً هو بمثابة النور الإلهي الذي يفيض على من يشاء من عباده وهم الأنبياء والأصفياء الذين اختارهم الله واختصهم بذلك النور. وبعبارة أخرى يمكن القول إن هذا الطريق هو طريق الوحي والإلهام. ولكن هناك سؤال يدور في الذهن وهو: أي : من الطريقين اعتمده ابن باجة ليكون طريق الوصول إلى العقل الفعال؟ للإجابة على هذا السؤال حسب زعمنا هو أن هذين الطريقين موجودين في كتب ورسائل ابن باجة حيث قرر أن الطريق الأول هو طريق الفلاسفة ، والثاني هو طريق الرسل والأنبياء وأولياء الله الصالحين وكل من خلص له وصدق. ومن جهة أخرى يمكن القول حسب ما تقدم أن طريق العقل وطريق الوحي يلتقيان في بعض الأمور: منها أنهما لا يخلوان من المعونة الإلهية، وعلى هذا فالعقل الإنساني في مراحل ترقيه العليا في حاجة إلى فيض العقل الفعال (٣)

بناء على ما سبق نجد أن هذين الطريقين عند ابن باجة يعتمدان على اكتساب الأنسان وجهده في محاولة الارتقاء من المحسوس إلى المعقول إلى العقل الفعال، إذ أن منة الله ومعونته لا تأتي إلا لمن هو أهل لها، أي: لمن أعد لها واستعد لها استعداداً خاصاً، وهذا يعني أن الطريق الثاني لا يخلو من جهد أنساني، وإن كان يختلف عن الطريق الأول الذي يعتمد أساسا أولاً وأخيراً على الجهد الإنساني.

كما أن ابن باجة قد جعل العقل أداة معرفية تتولد ذاتياً، وليس في حاجة إلى توجيه أو إرشاد من خارجه، فهو يمتلك القدرة على التعريف ، والكشف عن الحقائق بمقتضى طبعه بعيداً عن أي وصية من الخارج، وقد كشف عن ذلك في شخصية المتوحد حيث قرر أن الفرد يستطيع أن يصل إلى نهاية المعرفة ويندمج في العقل الفعال إذا تخلص من رذائل

---

(١) ابن باجة: رسالة الاتصال ،ص : – ١٦٢ .

(٢) ابن باجة: الفطر الفائقة والتراتب المعرفي، ضمن رسائل ابن باجة الالهية، ص: – ١٧٥ .، و كامل محمد محمد عويصة، ابن باجة الأندلسي الفيلسوف الخلاق، ص : ٢٣٥

(٣) علي عبد الفتاح المغربي: فلاسفة المغرب، ص: – ١٨٥ – ١٨٩

المجتمع وانفرد بنفسه واستخدم قواه العقلية في تحصيل أكبر قسط ممكن من الثقافة والعلم، وصرح أيضا بأن الجمعية البشرية هي التي تطغى على الفرد وتعطل ملكاته النظرية وتعوقه عن الكمال بواسطة ما تغمره فيه من رذائلها الكثيرة وأهوائها الجارفة([1]) ولتأكيد ذلك نجد ابن باجة يوجه نقده الحاد إلى الطريق الصوفي الذي سلكه الإمام الغزالي معتبراً إياه مفكراً من الدرجة الثانية ، وأن هذا الطريق لا يمكن الوصول به إلى الحقيقة والسعادة كما كان يدعي ، وأن ادعاءاته بمشاهدة أمور إلهية وبلوغ قمة السعادة خلال اعتزاله ما هي إلا أوهام باطلة وأفكار زائفة ([2]) كل هذه الدلائل تدل على أن ابن باجة كان عقلانياً مفضلا للطريق العقلي على ا لطريق الصوفي . ولهذا يمكن القول أن ابن باجة قد شق الطريق للمدرسة العقلية في بلاد الأندلس، وخاصة لابن رشد الفيلسوف العقلاني ، فإذا كان ابن باجة قد تحد ث عن قضية الاتصال ، وفضل الطريق العقلي على طريق المتصوفة الذي يقوم على الزهد والعبادة، فإن ابن رشد قد اتبع الطريق نفسه، ووصفه بأنه طريق برهاني، وأن البرهان هو أسمى صور اليقين، فكأن الاتصال عندهم ما هو إلا منهج علمي، وبحث نظري ، وتعقل فلسفي.

ثانيا: العقل والوجود عند ابن باجة

اهتم ابن باجة بقضية الوجود شأنه في ذلك شأن فلاسفة الإسلام سواء السابقين عليه أو المعاصرين له، كما اهتم بفلسفة (أرسطو) الطبيعية فعني بشرحها وتفصيلها كشرحه لكتاب (السماع الطبيعي لأرسطو) حيث يعد من أكبر النصوص في الطبيعة التي تركها ابن باجة، وكتاب (الآثار العلوية) والكون والفساد والحيوان، كما عني بوضع عدة مؤلفات في الجانب الطبيعي تهتم بدراسة الزمان والكائنات الحية([3]) وماهية الشوق الطبيعي متأثراً فيها بآراء (أرسطو) فدراسة ابن باجة للوجود تتطلب بحثاً خاصاً بها، ودارسته بالتفصل لا يتحمله نطاق بحثنا، لذلك ستقتصر دراستنا هنا على بيان كيفية اعتماد ابن باجة على العقل في دراسته للوجود، من خلال ر د كل ما يحدث في العالم إلى أسباب ضرورية تدرك بالعقل. ويتضح ذلك من خلال موقفه من المسائل الآتية وتفسيره لها :

(١) محمد غلاب ، الفلسفة الإسلامية في المغرب، د.ط، د.ت، ص: – ٣٧

(٢) ابن باجة: التدبير المتوحد، ص: – ٥٥

(٣) الإسطقسات: هو لفظ يوناني بمعنى الأصل وتسمى العناصر الأربعة وهي الماء والهواء – والتراب والأرض، إسطقسات لأنها أصول المركبات التي هي : الحيوانات والنباتات والمعادن.)الجرجاني: التعريفات، ص: ٢٣

أولا – قدم العالم :

قبل الحديث عن رأي ابن باجة في قضية قدم العالم رأينا أن نوضح تقسيم ابن باجة للعالم حيث اتخذ ابن باجة من تأليف العالم من العناصر الأربعة ، ومن حركة النقلة أساساً لتقسيم العالم إلى قسمين :

١ – عالم ما فوق فلك القمر (عالم السموات)

٢ – عالم ما تحت فلك القمر (عالم الكون والفساد)

والجدير بالذكر أن هذه القسمة أخذها ابن باجة عن (أرسطو) فبينما نجد (أرسطو) قد توسع في شرحها في كتابه (السماء والعالم) إلا إننا نجد ابن باجة كعادته يشير إليها إشارات أحيان اً موجزة وأحياناً أخرى مستفيضة، وسنحاول هنا أن نعرض بإيجاز رأيه في هذين العالمين .

أولا– عالم ما فوق فلك القمر (عالم السموات) :

يمتاز هذا العالم بأنه لا يوجد فيه كون ولا فساد ومن خصائص أجرامه أنها غير متكونة ولا فاسدة ولا تقبل النقصان، ولا الاستحالة، وهي مرتفعة عن أنواع التغيرات التي تلحق الكائنات الفاسدة من جهة ما هي كائنة فاسدة لأن الكون كما يقول ابن باجة مرادف للحدوث ولأجرام السماوية، وأن عدم خضوعه للكون والفساد إنما يرجع لطبيعة حركة المادة المكون منها . وبما أن الحركة الدورية هي أفضل الحركات من حيث الاستدامة والوحدة والأزلية فإن هذه الحركة هي التي تليق بالأجرام السماوية حيث اتخذت شكلاً كرويا

يقول ابن باجة " فما يتحرك عن استدارة بذاته فهو غير متغير، إنما التغيير يكون فيما يتحرك حركة مستقيمة لأن الاستحالة والتكون إنما يكونان في الأضداد ، فهي ما يتحرك حركة مستقيمة" ([1]) وهكذا نجد حسب رأي ابن باجة أنه إذا كان العالم العلوي مكو ن من أجسام بسيطة لا تنقسم إلى أجسام مختلفة الطبائع كالسماء والارض والماء والنار والهواء، وكانت حركته هي الحركة الدورية الدائمة فإن عالم الكون والفساد، وما تحت فلك القمر مكون من أجسام مركبة تنشأ من تمازج العناصر الأربعة مع توسط الأفلاك([2])

ثانيا– عالم ما تحت فلك القمر (عالم الكون والفساد) :

هذا العالم في رأي ابن باجة يناقض العالم العلوي في كل شيء ، فالأجسام التي يتركب منها عالم الكون والفساد هي الأجسام البسيطة والأجسام المركبة، فيقول

(١) ابن باجة: رسالة الاتصال، ص: – ١٦٣ .

(٢) زينب عفيفي: ابن باجة وآراؤه الفلسفية، ص: – ١٧٥،١٧٦ .

ابن باجة " إن كل كائن فاسد فهو جسم ملموس وكان كل ملموس فهو إما بسيط وإما مركب ([1]) أما التركيبات فتتمثل في تركيب الاسطقسات: وهي من الصورة والمادة الأولى ، أي: تركيب من الأجسام البسيطة في المادة الأولى التي هي غير المصورة بالذات، وتتمثل أيضاً في الأجزاء المتشابهة والجماد. وتبعاً لهذه التركيبات فإن الكائنات الموجودة في هذا العالم هي كائنات حية مثل: المعادن والنبات والحيوان، وكائنات لا حياة فيها كالأجسام التي تتركب منها العناصر الأربعة ، أي : إما أن تكون بسائط ، وإما أن تكون مركبات كما يقول ابن باجة " إن كل تكون فهو إما بسيط، وإما مركب أعني بالتكون البسيط التغير إلى الموجود البسيط، ، وأعني بالتكون المركب الحركة إلى الموجود المركب" ([2]) معنى ذلك أن البسائط عند ابن باجة هي الأجسام البسيطة التي توجد صورها في المادة الأولى التي هي غير مصورة بالذات، وهذه البسائط ليست بعضها أقدم من بعض ومنها تكون سائر الموجودات كما أنها متجانسة ومتضادة القوى، ولما كانت هذه الأربع المتضادات موجودات في أجسام طبيعية فلابد ضرورة من أن يكون قوام كل واحد منها بجسم طبيعي فيكون ذلك الضد لذلك الجسم طبيعياً([3]) وأما الأجسام المركبة فيرى ابن باجة أن كل جسم صار مركب وليس بسيط ؛ ولكنه يتركب من بسائط، وهذه الأجسام لها قوام ونهاية مخصوصة به فالحيوانات والنباتات ليست متشابهة الأجزاء، وكل مركب إما أن تكون أسطقسا ته (عناصره) التي تركب منها موجودة فيه بالفعل، فيكون تركيبه اتصالاً، وإما إلحاقاً فيكون متلاقياً ، وإما أن تكون اسطقساته التي تركب منها بالقوة فيكون امتزاجاً([4]) هكذا قدم ابن باجة تفسيره للعالم الطبيعي بشقيه محاولاً الربط بين العالم العلوي

والعالم السفلي، وهو تفسير يحاول ابن باجة من خلاله رد كل ما يحدث في العالم إلى أسباب ضرورية تدرك بالعقل، رافعاً شعار العقل في بحثه للطبيعة مبتعداً عن مجال القول بالعادة أو الاقتران.

لكن ما هو رأي ابن باجة في قضية العالم من حيث القدم والحدوث هذا ما سنتناوله بإيجاز.

أدلة ابن باجة العقلية على قدم العالم.

أعلن ابن باجة صراحة القول بقدم العالم مؤيداً ذلك بالحجج والبراهين العقلية

(١) ابن باجة رسالة الاتصال ، ص: – ١٥٦

(٢) ابن باجة: رسالة الاتصال ، ص: – ١٥٧

(٣) ابن باجة : التدبير المتوحد: تحقيق معن زيادة، ص: – ٩٢

(٤) ابن باجة : كتاب النفس، تحقيق محمد الصغير حسن المعصومي، دمشق، – ١٩٦٠ م،ص: ٨٤

المستمدة من آرائه في الطبيعة، وما بعد الطبيعة، ولا شك أن مباحث علم الطبيعة عنده، وقوله بقدم الحركة ورجوعها إلى محرك أول قديم محرك ولا يتحرك، ثم قوله بارتباط كل من الزمان والمكان بالحركة، والعلاقة بين القوة والفعل، والضرورة الحتمية لعلاقة الأسباب بمسبباتها ، ومتى وجدت العلة، وجد معلولها ضرورة لا شك أن هذه المباحث تؤكد بصراحة ووضوح قول ابن باجة بقدم العالم ، وأن هناك فاعلاً لهذا الكون مستدلاً بالأدلة الأتية:

١ –مبدأ الحركة.

يرى ابن باجة أن الحركة قد تكون بالقوة وقد تكون بالفعل فإذا قام في وجهها عائق فإنها تظل باقية ولا تفنى وأنها تنتقل من الفعل إلى القوة كما انتقلت من القوة إلى الفعل فهي تكون غير محركة ولكنها في نفس الوقت ممكنة أن تحرك أي: أن الحركة فيها تكون بالقوة(١) ، ولذلك أخلق الأشياء بالدوام هو الله تعالى وهو معطى الدوام" (٢) ، وهكذا يثبت ابن باجة وجود فاعل هو علة لكل جسم ، وهذه العلة لا ابتداء لها من جهة الزمان ولم يسبقها العدم وهي قديمة.

٢ – العلاقة الضرورية بين الأسباب والمسببات.

يؤكد ابن باجة على أن العلاقة بين الأسباب ومسبباتها هي الأساس في فهم طبيعة الوجود، فكل مادة من المواد لها فعل معين، فالنار لها فعل، وكذلك الماء، وبدون تحديد أسباب كل مادة وصفاتها الجوهرية تكون الأشياء كلها شيئاً واحداً يقول ابن باجة :" فمن جعل الموجود واحداً فهو يرى ضرورة أن التكون استحالة، أو غير ذلك من الحركات فإذا افترضنا أن هذا الموجود واحد فيجب أن نحدد داخل هذا الواحد هل له فعل واحد يخصه أو انفعال يخصه أو ليس له ذلك فإذا كان له فعل يخصه فقد أصبح هذا الفعل صادراً عن طبائع خاصة به وإن لم يكن له فعل يخصه فهو إذن ليس بواحد فالجسم الطبيعي إذا فرض أنه لم يفعل فعله في الجسم فإن ذلك يرجع إلى وجود عائق يعوقه عن أداء فعله" (٣) فالجسم بالرغم من أنه لا يقوم بفعله فأن ذلك لا يفقده صفته الجوهرية فالنار مثلاً لم تفعل فعلها في الجسم ، وذلك يرجع إلى أن هناك موجوداً يوجد له إلى الجسم الحاس إضافة تعوق الإضافة الفاعلة للنار والتي تؤدي إلى احتراق الجسم مثل أن يقال أن الاحتراق حدث عن قدح الزناد أي من احتكاك حجرتين مثلاً، لكن هذا

(١) ابن باجة: رسالة الاتصال، ص: – ١٣٧

(٢) ابن باجة : كتاب النفس، ص: – ١٤٢

(٣) ابن باجة: المصدر نفسه، ص: – ٢٦

الاحتراق لا يفقد النار صفتها الأساسية وهي صفة الإحراق لأنها رغم أنها لم تقوم بالفعل إلا أنها لا

تزال تسمى باسم النار(1) ، وبناء على ذلك فالأشياء الفاعلة المؤثرة(المحركة) إما تكون فاعلة بالطبع أو بالاختيار. ففي الفاعلة بالطبع يرى ابن باجة أن الأجسام الطبيعية تتحرك إلى مواضعها التي لها بالطبع إذا لم يكن هناك ما يعوقها عما حولها بالطبع ، فالحجر من جهة أنه بالقوة يتجه إلى أسفل ويحرك عن طريق أنه ثقيل ، ولذلك يتحرك بنحو واحد من الحركة بالطبع الذي هو فيه أما إذا قذف الحجر إلى أعلى فهو في هذه الحالة يتحرك حركة مضادة لما له بالطبع ، ولكن لا تكاد قوة القذف تفقد من حدتها بعد بلوغ أقصى مدى لها متى يتحرك الحجر إلى أسفل ويكون نقله هو المحرك في هذا الاتجاه(2) فابن باجة ينبه على أنه لا ينبغي الاعتقاد أن هناك تضادين المحرك والمتحرك ؛ إذ المتحرك هو قوة المحرك فقط، فالحركة موجودة في المتحرك بالقوة ؛ ولكنها لا تصبح فيه بالفعل إلا بفعل الحركة(3)

أما الأفعال الاختيارية فهي خاصة بالكائنات ذوات الأنفس فهي كائنات متحركة بذواتها ومن تلقائها مثل أنواع الحيوان التي لا تحتاج إلى غيرها في تحريكها غير أن المحرك الذي يحركها، إما أن يحركها حركة مضادة للطبيعة، أو حركة موافقة لها. فلكل شيء حسب راي ابن باجة طبيعة خاصة به وفعل يتلائم مع هذه الطبيعة، وهذا يتضح في الأجسام المادية بأن الفاعل إذا ماس المنفعل، ولم يكن هناك عائق يعوقه فإن الفاعل والمنفعل كل منهما يقوم بوظيفته فيحرك الفاعل ويحرك المنفعل. وبناء على ما تقدم فإن العلاقة بين الأسباب ومسبباتها علاقة حتمية ضرورية(4)

ثانيا- العقل والله:

يعد هذا الجانب في فلسفة ابن باجة من الجوانب المهمة التي تشهد باتجاه ابن باجة العقلي ، وكيف أنه تمسك بالعقل والبرهان، وسوف نتناول في هذا الجانب أدلة ابن باجة على وجود الله التي تم استنباطها من نصوص مختلفة حيث اقتصرناها على دليلين وهما:

---

(1) زينب عفيفي: ابن باجة وآراؤه الفلسفية، ص: - ١٨٦ ، ١٨٧

(2) ابن باجة: كتاب النفس، ص: - ٢٦

(3) زينب عفيفي: المرجع نفسه، ص: - ١٨٧

(4) زينب عفيفي: ابن باجة وآراؤه الفلسفية، ص: - ١٨٨

١ – البرهان الطبيعي (دليل الحركة.

إن مسألة التدليل على وجود الله ومحاولة البرهنة على وحدانيته، من المسائل الفلسفية التي خاض فيها أكثر فلاسفة الإسلام، سواءً في المشرق العربي كالكندي والفارابي والغزالي، أو في المغرب الإسلامي كابن باجة وابن رشد. حيث حاول ابن باجة أن يحلل فكرة الحركة والمحرك باعتماده على الحركة كدليل على وجود الله بحيث يرفض إمكانية التسلسل إلى مالا نهاية؛ لأن القول بالتسلسل إلى مالا نهاية عنده لا يؤدي إلى القول بوجود الله، أي : محرك أول لا يتحرك.

فابن باجة لكي يستطيع أن يثبت وجود المحرك الأول أثبت وجود الحركة ؛ لأن أثبات أحد طرفي السلسة التراتبية للحركات أمر أساسي لإثبات وجود الطرف الآخر، وفي ذلك يقول ابن باجة :" إن كل متحرك فعن شيء ما يتحرك وحركته من غيره، وذلك إما أن يحرك وهو يتحرك، وإما أن يحرك ولا يتحرك، فواجب أن يكون هنا محرك أول لا يتحرك عن غيره، إنه لم يكن محرك أول لم يكن محرك آخر، لأنه إن مر إلى غير نهاية لم يكن هناك أول، وإذا لم يكن هناك أول فليس هناك آخر"(١) يفهم من النص السابق أن لكل متحرك محرك ، وهذا المحرك بدوره متحرك ولأنه متحرك فله محرك حتى يصل إلى محرك أول لا محرك له، أي: أن سلسلة المحركات لا يمكن أن ترتد إلى غير نهاية، وأنه لابد لهذه السلسة من أن تنتهي عند محرك أول لا محرك له، دائم الوجود وهو الله سبحانه وتعالى.

وهكذا فإن آراء ابن باجة في الفلسفة الميتافيزيقية تضافرت مع آرائه في العالم في ضرورة التوقف عند حد أقصى لتسلسل الحركات في العالم الطبيعي لإثبات أن ثمة علة أولى للحركة تكون هي ذاتها غير متحركة، وتلك العلة المحركة التي لا تتحرك هي ما أطلق عليها ابن باجة (المحرك الذي لا يتحرك)، وهو مصدر كل حركة، وما من حركة إلا وترتد إليه

٢ – دليل الممكن والواجب.

تشير نصوص ابن باجة إلى القول بوجود هذا الدليل الذي قد يكون قال به تحت تأثير الفارابي الذي تأثر به كثيراً فيقول ابن باجة " ومتى كان الفاعل له فاعل، وتسلسل إلى مالا نهاية له، وجب ألا يوجد موجود بوجوده، إذ ما لا نهاية له من الفاعلين غير موجود فلذلك يجب بالضرورة أن ينتهي الفاعلون إلى فاعل واحد أول

(١) ابن باجة : شروحات السماع الطبيعي، تحقيق: معن زيادة، دار الكندي، بيروت، – ١٩٧٨ م. ص: ١٧٤

واجب الوجود بذاته هو السبب الأول" ([1])
يلاحظ من ذلك أن ابن باجة يقوم بتحليل فكرة الوجود ذاتها بالعقل كي يخلص إلى أن الموجودات تتقسم إلى قسمين: واجب الوجود ، وممكن الوجود.
وينقسم واجب الوجود إلى واجب الوجود بغيره وهو الذي لا يوجد بذاته ؛ بل بغيره، وواجب الوجود بذاته وهو الذي لا يكون وجوده بغيره ، وإذا فُرض غير موجود لزم عنه محال يقول ابن باجة " إن واجب الوجود بذاته لا يكون وجوده بغيره إلى ما لا نهاية له ، والواجب الوجود بغيره لا يوجد بذاته فمتى رفع الغير الذي هو به وجوده كان ممتنع الوجود بذاته. فإذن متى اخذ وجوده بغيره وجب وجوده، ومتى أخذ وجوده بذاته كان ممكن الوجود، إما أن يوجد وإما لا يوجد، لأنه بالإضافة إلى غيره يوجد وبرفع هذه الإضافة لا يوجد وهو بحسب ذاته معرض لأحد الوجهين إلى وجود وإلى لا وجود ، وهذا من طبيعة الممكن" ([2]) ويبرز الجانب العقلي في هذا الدليل أيضاً حيث يرى ابن باجة أن الممكنات لا يمكن أن تستمر في الوجود إلى ما لا نهاية؛ لأن ما لا نهاية له من الفاعلين غير موجود، بل لا بد له من سبب أول تنتهي إليه وهذا السبب هو واجب الوجود بذاته. يقول ابن باجة " والواجب الوجود بذاته لا يكون وجوده بغيره، فليس له سبب عنه كان وجوده ولا فاعل له ولا صورة في مادة ولا غاية ولا له أجزاء كان عنها وجوده، فهو واجب الوجود بذاته من كل الجهات ، وهو سبب الوجود لكل ما سواه، وكل ما سواه واجب الوجود به، فهو السبب الأول والواحد بذاته، البريء من أنحاء النقص الكامل الوجود، وليس وجوده لسواه، وليس يمكن أن يكون وجوده إلا له فقد انفرد به" ([3]) وهكذا استدل ابن باجة على وجود الله بهذين الدليلين اللذين يعتمدان أولاً وأخيراً على العقل.
يميز ابن باجة ثلاثة أصناف من الناس حسب المعرفة العقلية وهي :
المرتبة الجمهورية على حد تعبيره هي المرتبة الطبيعية، هؤلاء إنما لهم المعقول مرتبطا بالصور الهيولانية، ولا يعلمونه إلا بها وعنها ومنها ولها ويدخل في هذه جميع الصنائع العملية([4]) . فهذه الرتبة أو الصنف، عندما ارتبط الأمر بالهيولانية، فمعناها أنها أول مراحل المعرفة العقلية، فهي بهذا تعتمد على الحس بشكل مباشر أي أنها تبنى على صفة

---

(١) يراجع: ابن باجة : شروحات السماع الطبيعي، ص – ١٠٧ ، وعمر فروخ، ابن باجة والفلسفة المغربية، بيروت، ١٩٤٥ م، ص: ٣٦
(٢) ابن باجة: الرسائل الإلهية، في الواجب والممكن، ص: – ١٨٨
(٣) ابن باجة المصدر نفسه، ونفس الصفحة.
(٤) عبد الرحمن بدوي الموسوعة الفلسفية، ص ١٢

الشمول أي يشترك فيها الجميع.

المرتبة النظرية: أصحاب هذه المرتبة أعلى من المرتبة الجمهورية ولديهم الاستعداد لبلوغ المرتبة الثالثة(١) . في هذه المرتبة يصبح العلم فيها قائما بالشكل الصحيح ولا يفصل بينهم وبينه إلا خيط رفيع.

مرتبة السعداء: وقد خصها ابن باجة للسعداء لأنهم هم الذين يمكنهم رؤية الشيء بنفسه(٢) ، يعني في هذه المرحلة أو المرتبة تصبح المعرفة في حدها الأقصى والوصول إليها لا يحتاج إلى أية واسطة بينه وبين المعرفة، والواصل إليها هو من زمرة الحكماء. إذن فكما تدرجت العقول عند ابن باجة، كذلك كان الحال في منازل منازل الناس أو منازل الاتصال في المعرفة العقلية فهي تسير وفق تدرج نحو الأعلى دائما .

في العقول وخلودها

ولي في هذا نظر أطول من وجوه، البرهان عليه: أنه يجب أن نضع اليقين بحقيقة العقل على ترتيبه من أقرب العقول إلى الأول إلى أبعدها رتبة، وهو عقل الإنسان. وإن وجوده ببصيرة تفيض من الأول واحدة بعينها، ثم تختلف بحسب القابل، يبصر بها المعاني منزلتها منزلة نور الشمس المبصر به. والمبصرات إذا التقت من ينظر بعقله في المعاني أبصر تلك البصيرة وكذلك نور العقل(٣)

(١) الشيخ محمد محمد كامل عويضة ابن ناجة الأندلسي فيلسوف الأخلاق، ص ٢٢٠

(٢) المصدر السابق ص ٢٢٢

(٣) رسائل فلسفية :المؤلف: محمد بن يحيى بن باجه، وقد يعرف بابن الصائغ، أبو بكر التجيبى الأندلسي السرقسطى (المتوفى: ٥٣٣هـ) ص٣٤

الخاتمة:

- رفض ابن باجة التقليد رفضاً تاماً، ولم يعول على التوفيق ، أو التسويغ، أو التوليف كما هو الحال بالنسبة لمعاصريه، وإذا عول على الحدس فيما يتعلق بفكره فهو حـدس مـستمد من حصاد معرفة واسعة وعريضة وليست نتاج تنسك وزهد كما هو الحال عند المتـصوفة التقليديين، فمقولته عن (التوحد) أبعد ما تكون عن مقولة (الاتحاد) الصوفية، فالتوحد عنـد ابن باحة غاية لا وسيلة منهجية، أو معرفة فلسفية، إنه سلوك عقلي، استهدف عقلنة الغيبيات.

- إن نظرية المعرفة عند ابن باجة أساسها التفكير العقلاني حيث كانـت الطبيعيـات فـي منظومته لها الأسبقية، وقد عول في عرضها على المعرفة النظرية والحس التجريبي ولـم تكن مجرد نقل لأقوال الطبيعيين، بقدر ما كانت معرفة محققة جرى تجريدها وتحويلها إلى علم فلسفي نظري، ولا تجريد صوفي.

- إن المعرفة الطبيعية عند ابن باجة جزء من المعارف العامـة التـي تؤهـل "المتوحـد" للاتصال بالعقل الفعال الفيوضات الحدسية عند ابن باجة فهي تتعلق بالإلهيات أو مـا بعـد الطبيعيات، ومعلوم أن الإلهيات تحتل في منظومة مكانة ثانويـة، لـم يعـول فيهـا علـى المعتقدات السمعية أو النصوص العقدية

المصادر والمراجع:

١. عبد الرحمن مرحبا: خطاب الفلسفة العربية الإسلامية، مؤسسة عز الدين للطباعة والـنش، بيروت، د.ط، ١٩٩٣ م،
٢. الفاخوري خليل الجر، تاريخ الفلسفة العربيـة، ج – ٢ ، دار الجبـل ، بيـروت، ط ٣ ، ١٩٩٢ م،
٣. دي لاسي أوليري: الفكر العربي ومكانته في التاريخ، نقله إلى العربيـة وعلـق عليـه، – إسماعيل البيطار، دار الكتاب اللبناني، د.ط ، ١٩٨٢ م
٤. كامل محمد محمد عويصة، ابن باجة الأندلسي الفيلسوف الخلاق، دار الكتب العلميـة ، – بيروت، ط ١ ، ١٩٩٣
٥. ابن باجة: الفطر الفائقة والتراتب المعرفي، ضمن رسائل ابن باجة الإلهية
٦. محمد غلاب ، الفلسفة الإسلامية في المغرب، د.ط ، د.ت، ص: – ٣٧
٧. ابن باجة : كتاب النفس، تحقيق محمد الصغير حسن المعصومي، دمشق، – ١٩٦٠ م
٨. ابن باجة : شروحات السماع الطبيعي، تحقيق: معن زيادة، دار الكندي، بيروت،١٩٧٨ م.
٩. ابن باجة : شروحات السماع الطبيعي، ، وعمر فروخ، ابن باجـة والفلـسفة المغربيـة، بيروت، ١٩٤٥ م،
١٠. الشيخ محمد محمد كامل عويضة ابن باجة الأندلسي فيلسوف الأخلاق،
١١. رسائل فلسفية :المؤلف: محمد بن يحيى بن باجة، وقد يعرف بـابن الـصائغ، أبـو بكـر التجيبى الأندلسي السرقسطي (المتوفى: ٥٣٣هـ)
١٢. زينب عفيفي: ابن باجة وآراؤه الفلسفية، دار الوفاء، ط ١ ، الإسكندرية، ٢٠٠٠م،.
١٣. ابن باجة : رسالة الوداع ضمن رسائل ابن باجة الإلهية : تحقيق : ماجـد فخـري، ، دار النهار ، بيروت ، ١٩٦٨م،
١٤. ابن باجة : نظر آخر يقوي ما تقدم ضمن رسائل ابن باجة الإلهية، تحقيق جمـال الـدين العلوي، دار الثقافة، بيروت، د.ط، د.ت،
١٥. ابن باجة رسالة اتصال العقل بالإنسان ضمن رسائل ابن باجة الإلهيـة، تحقيـق: ماجـد فخري، دار النهار وبيروت، د ط ١٩٦٨ م